الزوجة والزواج

لما خطرت فكرة انشاء المجلة على نفسي وكانت لم تتخمر بعد كنت امني روحي بالآمال واهيئ المواضيع وأعد المعدات شأن كل نفس عالية بعثت في جسم ضعيف، تتمنى الوصول الى قمم المجد لتهيئ لأبناء امتها منها مكاناً فتجد الابواب موصدة في وجهها فتتعزى بالامال وتتصور انها قبضت على مفاتيح السعادة الادبية الحقيقية فترتقي من تصوراتها وتسترسل الفكر في بحرانه الى ان ينبهه منبه فيعود الى صوابه وكان عزاء نفسي الوحيد اني كنت اناجيها فأقول :

اذا لم يكن لكِ ايتها النفس سبيل للوصول الى ما تريدين فيكفيك الاكتفاء من الحقائق بالخيال . كانت هذه التصورات تعزيتي الوحيدة وكانت افكاري احياناً تسبح بي في محيط واسع من الآمال لا نهاية لها فتذكرت مرة حكاية السندباد البحري الذي بلغ ما وصل اليه جهده وكده انه اصبح يملك « قدرة سمن » فحملها على رأسه وسار بها الى السوق وكانت نفسه تحدثه بالآمال العظيمة على مستقبل هذه « القدرة » الى ان بلغت به ان يقول « سوف ابيع هذه القدرة واشتري غيرها وابيعها واتاجر بالسمن حتى اصبح غنياً فأبني قصوراً واتزوج وارزق ولداً أربيه واعلمه واذا لم يطاوعني اضربه بهذه العصا » وبينما هو غرقان في تأملاته تصور ان آماله حقائق فرفع العصا ليضرب بها ابنه فوقعت القدرة من على رأسه وتكسرت وسال السمن على الارض وتحطمت آماله فتنبه من غفلته وعرف

انه كان يحلم بالمستقبل

لما تذكرت هذه الحكاية كانت نفسي تشبعت بالتصورات والآمال البعيدة التي تنتج من وراء انشاء هذه المجلة كنت اشعر انني في حلم وليس في يقظة.. هذه التصورات وحدها كانت تخيفني فترجعني الى الوراء فاتقهقر مضطربة من المستقبل لأن المأمورية التي اريد ان احملها على عاتقي ثقيلة خصوصاً في وسط شرقي كالوسط الذي نعيش فيه. وأخيراً تغلبت عزيمتي على عواطفي واميالي وقاومت كل الصعوبات التي احسب انها تعترضني في سيري وقلت ان « لا بد » من انشاء مجلة وانه اذا كانت الصعوبات التي تقف في سبيل نجاح المشروع شديدة فانا اجعل ارادتي اشد منها فان نجحت فحسبي خدمتي لأمتي فخراً وان لم انجح فيكفيني اني عملت « پروڤا » للمشروع الذي اعده للمستقبل اذا كان الحاضر لم ينضج بعد لقبوله ولما وضعت يدي على المحراث وصممت ان لا التفت الى الوراء قلت قد جاء وقت العمل وبدأت اهيئ المعدات للعدد الاول ولما كنت اعتبره « كپروڤا » للمشروع كما قدمت اخذت من ضمن مواضيعه هذا الموضوع الذي ابحث فيه الآن

الموضوع او هذه الفكرة التي خصصت لها هذه الكلمات هي نقطة الدائرة في حياتنا الاجتماعية مما لا يختلف فيه اثنان انه اذا وفق المرء وهو في ربيع حياته قبل ان يخطو الخطوة الأولى من دور الحياة الحقيقي الى زوجة صالحة مناسبة تتوافق اخلاقها مع اخلاقه وتمتزج طباعها مع طباعه ويتلاقى قلبها مع قلبه في طريق واحدة فانه يمكنه حينئذٍ ان يعيش مستريح

البال هادئ الضمير مرتاح الفؤاد ويمكنه ان يجاهر على الملا انه قبض على مفاتيح السعادة الحقيقية . اقول مثل هـذا القول عن الزوج كما اقوله عن الزوجة فانها اذا وفقت واسعدها حظها بزوج تندمج روحها مع روحه وتتآلف طباعها مع طباعه وتجد في حياتها معه تلك الراحة التي كانت تمني نفسها بوجودها بالحصول على زوج يناسبها مناسبة حقيقية بكل معنى الكلمة فيمكنها ايضاً ان تتيه على بنات جنسها عجباً وافتخاراً وتقول انها ارتقت دور السعادة الحقيقية اذ وفقت الى زوج صالح

على مثل هـذا الأساس يقام بناء السعادة العائلية اذ من المسلَّم اننا اذا ضمنا سعادة العائلة امكننا ان نضمن سعادة البلد والوطن والأمة باجمعها لأن البلد مجموع عائلات والوطن مجموع بلاد والامة مجموع الاثنين .

يعتقد كثيرون من الناس ان السعادة الحقيقية لا تأتي من اتفاق الرجل وزوجته وارتباطهما ارتباطاً حقيقياً واتجاه عواطفهما لوجهة واحدة رائدها الاخلاص ودليلها المحبة الطاهرة زعماً منهم ان السعادة الحقيقية لا ينالها الانسان الا من سبيل واحد هو سبيل المال وفي اعتقادي ان الذين يذهبون على هذا المذهب مخطئين من وجوه كثيرة واليك البيان

(١) اذا كان المال حقيقة على زعم البعض واسطة من وسائط السعادة فهذه الواسطة لا تدوم طويلاً ولا يجد الانسان العاقل منها ما يجده من زوجة موافقة ترطب اخلاقه اذا غضب. وتواسيه اذا مرض. تعطف اليه عند الشدة . وتشفق به عند الضيق. تتألم لآلامه وتفرح لفرحه . تكون نفسها نفسه وروحها روحه. فاذا عبس الدهر في وجهه ضحك له وجهها . تكون

يديها في يده لمقاومة صدمات الحياة واحتمال شدائدها . فاين يجد الانسان من يكنز هذه الصفات . وما المال الا هذا المعدن الصلب الذي لا يعرف لتكييف النفوس وتقريب المواطف سبيلاً والنفس لا تكيفها الا نفس تحس وتشعر مثلها

(٢) ان الزوجة الصالحة لا تثمن بمال . قال الفونس دوديه الكاتب الفرنساوي المجيد في بعض ما كتبه « ان كنت استحق فخراً فلامرأتي نصفه » ولم يقل ان الفضل في ما كتبته لثروتي نصفه . لم يقل ذلك لان الزوجة الحقيقيـة افضل من كل ثروة . لا بل هي افضل عند الرجل العاقل من العالم باسره لانها كل ثروته الحقيقية من هذا العالم اذا كانت جامعة في نفسها شروط الزوجة بالمعنى الصحيح . فاذا سلمنا بعد هذا البيان ان المال لا يعد الواسطة لضمان السعادة العائلية . وان هذه السعادة لا تأتي الا من التوفق الى شريكة تتوفر فيها الصفات المتلائمه مع اخلاق الشريك وصفاته امكننا ان نبحث في الطرق والوسائل التي يصل بها الرجل لغرضه ويجد هذه الشريكة

انا اعرف ان في مصر الوفاً من الشبان الذين تجاوزت اعمارهم السن الطبيعي للزواج . هؤلاء اذا سألتهم لماذا هم باقون كالاشجار اليابسة التي لا تورق ولا تثمر يقولون لك انا لم نجد من نضع يدنا في يدها فتكون لنا الحديقة الزاهرة التي يثمر في ارضها غرسنا الصالح وتظلنا باشجارها الوارقة . وعندي ان الذين يقولون مثل هذا القول اما انهم مغترون بعزوبيتهم حتى عميت ابصارهم عن نعمة المعيشة العائلية واما انهم لا ينظرون من وراء

الزواج تلك الاغراض الشريفة التي قل من ينظر اليها في هذه الايام .

قرأت اخيراً في مقالة لبعض الادباء عن العزوبية يقول فيها « ان الزواج الصحيح الذي يتغنى به انصار المعيشة الزوجية ويستندون في تفضيله على الاحاديث والحكم والشروح الطويلة العريضة قضى مأسوفاً عليه تحت ردم التقاليد والعادات والمقاصد وقام على انقاضه زواجاً ثانياً هو اشبه شيء بالتجارة والمضاربة عملتهما الشرف والفوز والالقاب ممثلاً في « الدوتة » والايراد والثروة والارث وغيرها من وسائل الاستثمار . وهذا القول هو الواقع الصحيح بعينه لانه قل من يوجد من الشبان في الوقت الحاضر من يطلب الزواج للاغراض الشريفة التي قام عليها بناء العمران

ولو سألنا الشبان الذين يسعون وراء الزواج في هذه الايام عن الاغراض التي يرمون اليها لظهر لنا انهم يريدون من الزوجة ان تكون جميلة وغنية ومتعلمة « ووارثة » وغير ذلك من الاسباب التي لا تقف اغراضهم عند حد منها . وغالبهم يفضل الزوجة الوارثة مهما كانت دمامة وجهها وشدة اخلاقها . سألت بعضهم يوماً ما وكان تجاوز من عمره الحد الطبيعي للزواج عن سبب امتناعه عنه وبقائه عازباً حتى الآن فقال انه لا يكره ان يتزوج شرطاً ان يتوفق الى زوجة « occasion » قلت له اتريدها غنية ؟ قال نعم . ومتعلمة ؟ نعم . وجميلة ؟ نعم . واخيراً قال اريدها « occasion تمام » — فقلت له ماذا تقصد من ذلك ؟ قال ان تكون زوجتي الموعودة « لقطه نال »

سمعت هذا القول من ذلك الشاب فحزنت في نفسي ان اسمع مثله

من شاب اعدّه من الشبان المتعلمين الذين يفهمون قيمة الوسط الذي يعيشون فيه

حزنت لأننا في فجر القرن العشرين وشباننا الذين تفاخر بهم مصر تنصرف وجهاتهم عن الحقائق للخيال فيتركون الجوهر ويتمسكون بالعرض مسكين مثل هذا الشاب الذي يطمع من ثروة الدنيا الحقيقية بالقشور دون اللباب

ما ضره لو ترك العرض وتمسك بالجوهر واشترط من صفات زوجته ان تكون متعلمة مؤدبة مترببة جميلة الخُلق لا جميلة الوجه والهندام

اننا لو بحثنا في الامراض الملمة بجميع العائلات المصرية وبحثنا في اسباب الاختلافات التي تكون نتيجتها غالباً انفصال الزوج عن زوجته بالطلاق عند اخواننا المسلمين و بالانفصال الذي لا تعرف له حدود عند الطوائف المسيحية لانتهى بنا البحث الى ان منشأ هذه الامراض والاختلافات يرجع الى سوء الاختيار وهذا يأتي من كثرة مطالبنا المتعددة التي نشترط توفرها في الزوجة المستقبلة فتكون النتيجة ما نراه بين ظهرانينا كل يوم من الاضرار التي كادت تقضي على مجموع الامة

اني اكتب هذه السطور وقلبي يكاد يتمزق حزناً على هؤلاء الشبان الذين فات اوان زواجهم الطبيعي وأفنوا زهرة عمرهم في مفاسد الوقت الحاضر ودخلوا في دور الكهولة المظلمة اي دور اليأس الذي يستولي على النفوس فيميت كل ما فيها من العواطف ولم يفقهوا وهم في دور القوة الى نعمة الزواج او فقهوا لها وتجاهلوها مدعين انهم لم يتوفقوا الى الزوجة التي

توافق مشاربهم واذواقهم كما يزعمون . ولا شك ان من يتأمل بعين بصيرة ونفس خالية عن كل غرض الى تلك المبادئ السامية التي قام على اسها بنيان الزواج الصحيح لا يسعه ان يتردد ابداً بعد ان يتعمق في معرفة سر الزواج مهما كان هو من انصار العزوبية ان يعترف بأن الزواج لازم وان الواجب على كل انسان ان يسعى اليه في حانة وقته

اما تلك الاسباب الواهية التي يتمسكون بها وهي ادعائهم عدم وجود من يرشدهم الى زوجة توافق مشاربهم وطباعهم . وقولهم انهم وجدوها ورغبوا ان يروا وجهها قبل ان يضعوا يدهم في يدها تقوم في وجههم اسواراً عتيدة من التقاليد والعادات الموروثة فمن ذلك اقول لهم انهم اذا كانوا حقيقة يرغبون في الزواج وانهم لم يرددوا من ذكره في مجالسهم ليتلذذوا من سماعه لان غالب شبان هذا الزمان على ما ارى يكثرون من احاديث الزواج ليتفكهوا بها لا لينفذوها عن رغبة صحيحة في نفوسهم حتى صح فيهم قول العوام « حدث العازب واركب حمارته »

فاذا كانت الرغبة الحقيقية والارادة الاكيدة متوفرتان في النفس فامامهما تتلاشى كل صعوبة . اما تلك الاسوار العتيدة التي تقف في سبيلهم فقد انقضى او أوشك ان ينقضي زمانها بفضل التربية والتعليم اللذان انتشرا بين الناشئة الحديثة من بنات الزوجة الاخيرة . وانا اعرف كثيرات من العائلات المصرية الراقية لا تبخل على طالب الزواج الصحيح ان يرى خطيبته بعد ما يأخذ من أهلها كلمة القبول . وأعرف كذلك ان بين العائلات المتوسطة كثيرات منها ممن لا تعد بناتها بضاعة مزجاة لا تتأخر

ابداً ان يرى الطالب خطيته اللهمَّ اذا كان قصده الزواج فعلاً لا مداعباته الاولى . اقول مداعباته الاولى لان كثيرين من شبان هـذا الزمان جف ماء الحياة من وجوههم فاتخذوا الزواج وسيلة لهم يكشفون بواسطتها زوايا بيوت الناس لاغراض سافلة لا يأتيها الا أدنياء الشبان المنحطين

وهناك وسائط اخرى كثيرة للشبان لا تخفى عليهم يمكنهم ان يروا منها محاسن وكمالات البنات فيختاروا منهنَّ بسهولة من يروا ان روحها الخفيفة اللطيفة تمتزج مع ارواحهم حتى اذا كان للنظرة الاولى في قلوبهم محلاً شغلته في الحال . ويتفق كثيراً ان الشاب متى وقع نظره على فتاة يهيم بحبها قلبه وتنطبع صورتها على فؤاده فلا ينساها ابداً وكذلك يتفق للفتاة ان ترى انساناً لاول مرة فيعجبها ذاته فتفتح له في الحال ابواب قلبها الموصدة وتجلسه في اخفر مكان فيه ولكنها متى حادثته وحادثها يتغير احساسها وتعرف انها اسرعت في فتح ابواب قلبها الموصدة التي لا يجب عليها ان تفتحها لكل عابر سبيل

وخلاصة ما اقصده من هذا الكلام في هذا البحث الطويل العريض ان افهم الشبان اللذين يستهجنون في سرهم كلما مر على خاطرهم ذكر الزواج ان الوصول اليه وانتقاء زوجة صالحة مناسبة ليس من المستحيلات كما يتوهمون لانه اذا كان هناك لديهم ارادة قوية فعالة فتحت اقدامها يتحطم كل صخر من صخور المستحيل وقصدي ايضاً ان افهم الاباء والامهات ان شبان هذا الزمان «وان كنت انحيت عليهم باللائمة كثيراً في هذا الفصل» يميلون للزواج « من عينهم ومن قلبهم » اللهمَّ الا افراداً منهم قليلين نحن

نلومهم ولا ندري ما هي اعذارهم . ويمكن ان « عينهم بصيرة ويدهم قصيرة » فلا يلزمنا ان نشدد النكير عليهم . أما ما أريد ان استلفت اليه بنوع خاص نظر الآباء والامهات هو ان هؤلاء الشبان الراغبون في الزواج « بعينهم وقلبهم » لا يحول دونهم ودونه غير تلك العثرات التي يضعها في سبيلهم الآباء والامهات الذين لم يزل لفعل الماضي تأثير سيء على نفوسهم

ولما كان توفر امتزاج الارواح بالارواح لابد له من وجود تيار يجري بينها وهذا التيار هو الجاذبية الحسية التي لا بد من تكوينها عند الزوجين فاذا لم تتوفر هذه الجاذبية بين رجل وزوجته فان معيشتهما تكون عرضة لعبث الايام ويكون زواجهما عن عقد اساسه سوء التفاهم ونتيجته التخاصم والتلاكم

وقد جرت العادة انه اذا قصد انسان ان يشتري لنفسه ثوباً جديداً فانه لا يدفع ثمنه ولا يبدي موافقته ما لم يقس هذا الثوب على نفسه ويجده موافقاً تمام الموافقة . كذلك اذا قصد مشترى بقرة مثلاً يستدر لبنها فلا يثبت في الامر ما لم ير تلك البقرة ويسمع وصف محاسنها من الناس وانها من خير البقر المدرار . فاذا كان هذا الرجل عند مشترى الثوب الذي يلبسه والبقرة التي يحلب لبنها وهذه اذا خدع فيها فقد خدع في ماله افلا يجدر بالاباء والامهات ان لا يبخلوا عليه بنظرة من وجوه بناتهم بنظرة واحدة من وجه تلك التي ستكون شريكة له في حياته الجديدة التي سيدخلها بعد الزواج ؟

قال الاعمش « كل تزويج يقع على غير نظر فآخره هم وغم » وفي الواقع ان كل زواج يبنى على غير هذه القاعدة يكون رباطاً محلولاً سريع

الانتكاك لانه لم يبن على دعائم ثابتة تقاوم الارياح والاعاصير التي تهب في وجه المعاشرة

ولما كان البحث في هذا الموضوع وهو من اهم مواضيع الاجتماع التي قام عليها بناء العمران لا ينتهي عند مقالة واحدة رايت ان اكتفي الآن بما تقدم على ان اعود لأيفاء الكلام عنه في اعداد المجلة المقدمة واختم الآن هذا المقال بنصيحة عامة اوجهها للآباء والامهات واخص بالذكر البنات وهي ان لا يُظهرنَ تمنعهنَّ عن اظهار نفوسهنَّ لكل رجل شريف يطلب الزواج الصحيح لان هناك كثيرمن الشبان لا يرغبون في الزواج لتلك العثرة التي يلقيها في وجوههم الآباء والامهات واذا كان في بعض هؤلاء الشبان من يشك في صدق نيته وعزيمته فلا يصعب تمييز رغبته وحرام علينا ان نأخذ الكل بجريرة البعض .

شمع عال

لا تندهشي يا حضرة القارئة ويا حضرة القارئ من هذا العنوان الذي توجت به رأس كلماتي هذه وقبل ان يتساءل كل منكم في نفسه عن السبب الذي لاجله اتخذت هذا العنوان . احكي لحضراتكنَّ وحضراتكم الحكاية حتى لا تطول حيرتكم وحتى يستريح فؤادكم وفؤادي

وواقعة الحال يا سيدتي الانسة ويا « سيدنا الافندي » اني خرجت غروب يوم ما ومعي طفلي الصغير وانا متضايقة من « دوشة البيوت »